(٣٣) عودة العقول

د. صلاح:

كنا نتحدث عن استنزاف العقول أو ما يسمى بهجرة العقول ووضحنا الأسباب التي تدفع بهم إلى الهجرة والبقاء في الخارج، ويصبح لدينا نوعين من المتقابلات، الأول هو تدمير للمنطقة العربية والإسلامية، والثاني هو تعمير للحضارة الغربية بهذه العقول المتميزة.

هذا الأمر يتم بشكل دائم، ونحن لا بد أن نضع حلًا لهذه العقول التي تضطر إلى الهجرة أو إلى السفر أو تُستَجلَب للهجرة بسبب إغراءات ضخمة وكبيرة، نحن نريد أن نعالج هذه القضية.

بعض الناس بعد عودتهم من الخارج تجد ظواهر سيئة في بلادها، حتى أنه كان هناك رجل بريطاني ظل في البلاد العربية حوالي ٣٥ سنة وعندما عاد إلى بلاده كتب مقالا وذكر فيه ٣٥ ظاهرة من الظواهر المرضية التي وجدها.

ففي الخارج يجدون النظام وفي بلادنا يوجد اللانظام، هناك توجد المعامل وهنا توجد السجون والمعتقلات، هناك يتم تكريم العلماء وهنا يتم تجريم للعلماء، وبين التكريم هناك والتجريم هنا، لا يعودون.

حياتهم مستقرة جدًا في الخارج فلماذا يعودون؟

د. راغب:

الذي يجعله يعود هو أن يفهم لماذا سافر، ولن يفهم هذا إلا أن يُربىَ بشكل صحيح، فهي مشكلة تربية في المقام الأول، وفهم لماذا يعيش؟

فهي قضية الحياة، وما هي المهمة التي يجب على المسلم أن يقوم بها في حياته؟

هل خلق الله عزَّوجلَّ الإنسان ليعيش مستريحًا في الدنيا، وليحصل على ما يستطيع من ترف العيش وما إلى ذلك؟

نحن لم نخلق لهذه الأمور وإن كنا نفعلها فعلينا أن نستخدمها فيما خلقنا من أجله، وخُلِقنا لنعبد الله عزَّوجلَّ، ونعبده بالقرآن والسنة والمنهج الذي ارتضاه ربنا عزَّوجلَّ، والله سبحانه وتعالى أمرنا نُعزَّ شأن هذه الأمة.

والأيام دُول، ونعلم أن الأمة الإسلامية لن تستطيع أن تستمر قوية أبد الدهر، لأنه لا بد من لحظات ضعف ولحظات قوة، لا بد من علو ومن سقوط، وهذه سُنَّة لا تتغير: {فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} [فاطر: ٤٣]

فإذا وُجِدَ الإنسان في زمن الضعف، فسيكون له أدوار، وإن وُجِدَ في زمن القوة فسيكون له أدوار، في كل الأحوال له أدوار لتغيير واقع الأمة إلى الأفضل دائما، فإما للحفاظ على التمكين أن كانت الأمة مُمَكِّنَة، أو تمكينها أن كانت غير مُمَكَّنَة، وهذه المعاني لا تزرع في يوم وليلة.

د. صلاح:

الإمام الجويني يقول: "حفظ ما حصل وتحصيل مالم يحصل".

د. راغب:

وهذا المعنى لا يأتي بين يوم وليلة، وإنما يُزرع على مدار مراحل تربوية مختلفة، سواء مرحلة الطفولة الصغيرة قبل المدرسة أو مرحلة المدرسة أو الجامعة أو مراحل الاستماع إلى شيخ أو عالم أو مربي أو داعية، هذا فِكر منظومة كاملة.

فهل العلماء يزرعون هذه المعاني في المسلم؟، بأن لديه قضية في حياته وهي عبادة الله عزَّ وجلَّ، وأن الله أمره أن يعبده ويُعز شأن هذه الأمة وأن يصل بهذا الدين إلى العالم أجمع.

هذه مهمة المسلم، ابتعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وهذا هو دورنا الذي فهمه ربعي بن عامر وأقره الصحابة وهو ظاهر من واقع امر الدين.

وهذه الحقيقة لا تتبين لأحد من الناس بشكل عشوائي أو عابر، وإنما تحتاج إلى زرع تربويات بجهد جهيد وعمر طويل وبذل طاقات متجمعة من المؤسسات المختلفة من العلماء والحكام والمربين والآباء والأمهات، فهمي منظومة متكاملة.

إن زُرِعَ بداخل الشباب هذا المعنى وأصبحت لديهم آليات التغيير، وهذ الآليات لا تبدأ من سن الكهولة بل تبدأ من سن الشباب فيصبح له دور في التغيير، فإن تيسر له أن يخرج إلى بلادٍ أخرى ليُحَصِّل أمرًا ما سواء كان هذا الأمر هو العلم أو المال أو المنصب أو غير ذلك، فهو يُحصِّله حتى يعود لمهمته الأصلية وهي تغيير بلاده لا أن يذهب إلى هناك ليعيش لنفسه وفقط.

ومن يقول أنه يريد أن يعود إلى بلاده لكن بلاده غير مستقرة، فأقول له أن لو كانت بلاده مستقرة فهي لن تحتاج إليه.

يقول الله سبحانه وتعالى: {لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ} [الحديد: ١٠]

هذا كالذي عاد إلى بلاده وهي في ظروف علمية صعبة للغاية ثم اجتهد وناضل من أجل إقامة مؤسسة علمية صغيرة تسمح بشيء من التطوير.

وهذا الكلام ليس حُلم وإنما يوجد له أمثلة إيجابية كثيرة.

وأذكر أحد الأخوة الأفاضل عمل في الخارج مدة معينة وكانت حالته المادية فقيرة للغاية، ثم جَمَعَ المال ومنَّ الله عليه بفكرة استصلاح الأراضي وزراعة أشجار الزيتون في سيوة، فزرع الزيتون لكي ينتج زيت الزيتون في مصر، وبالفعل أنتج وبدأ يتعامل مع الناس ويبيع لهم، وكان يستورد الآلات التي يصنع بها الزيت، وبدأ يُفكر في صناعة هذ الآلات في مصر، وهو كان مهندسا وجَمَع مجموعة من المهندسين وصنع هذه الآلات بالإمكانيات التي توجد في مصر، وبالرغم من كل المشاكل التي نعيشها في مصر ومع كل الفساد الذي نعترف بوجوده، ووصل إلى التصنيع لدرجة تجعل عمليات التكرير أعلى من درجة التكرير التي تقوم بها المكنات المستوردة من الخارج.

إن أهم شيء في قضية الإصلاح وعودة العقول هو الفِهم، أن يفهم المسلم لماذا سيسافر ولماذا خلقه ربه ولماذا اختاره لأن يكون في هذا المكان.

فعندما يعود إلى بلاده عليه أن يكون مؤهل نفسيًا أنه لا يعود إلى جنة أو إلى نفس الظروف التي عاش بها في بلاد الخارج، وإنما هو عائد إلى البيئة التي عاش فيها وتربى فيها ويعرف كامل ظروفها وانه لديه مهمة شريفة ونبيلة وهي إصلاح هذا البلد.

إذا ترك كل إنسان صالح بلده فمن ذا الذي سيصلحها؟

د. صلاح:

الإنسان يجب أن يفهم دوره في الحياة، ولا يُحَوِّل هذا العلم إلى وسيلة للاسترخاء برغد العيش، حتى لا يقل له في: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ} [الأحقاف: ٢٠].

العلماء المسافرين للخارج الأصل لهم أن يعودون إلى بلادهم، قال رسول الله صل الله عليه وسلم: «لا هجرةَ بعد الفتحِ، ولكن جهادٌ ونيَّةٌ، وإذا استُنفِرتم فانفِروا»

الراوي: عبدالله بن عباس -المحدث: البخاري

المصدر: صحيح البخاري -الصفحة أو الرقم: ٢٧٨٣

خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

وربما يحتجّ البعض عليَّ الآن ويقول أن القياس هنا ضعيف، لكن في فترة بناء الدولة الإسلامية الأولى كانت الهجرة واجبة على كل مسلم في أي مكان في أرض الله عزَّوجلَّ، وأحد هذه الأهداف هو تقوية هذه الدولة الوليدة بطاقات متميزة من العلماء ومن المجاهدين ومن الناس ذوي النبوغ والإصلاح الاجتماعي، فبعد أن قويت المدينة وبمجرد أن حدث الفتح قال لهم الرسول هذا الحديث لأن الدولة قد استقرت، وبالتالي فإن الهدف الأول هو بناء وحدة الدولة والأمة الإسلامية.

نحن نحتاج أن نغرس قليلًا في هذه الأرض وإن كانت تميد أو غير ثابتة، لكن هذا جهاد ولا بد أن نخوضه لأن هذه بلادنا، وكما قال الشاعر:

بلادي وإن جَارت عليَّ عزيزةٌ *** وأهلي وإن ضنّوا عليَّ كِرام

وأنا أتمنى أن يُدَّرس للناس حب الوطن فهذا من صُلب الدين، وأنا لدي كتاب كامل في المواطنة في الشريعة الإسلامية وألوم على كثير من الإسلاميين أنهم لا يطرحون قضية المواطنة والولاء للوطن كأنه جزء أساسي من الدين، حتى أن رجلًا لبنانيًا يقول:

بِلادُكَ قَدِّمْها على كُلِّ مِلَّةٍ *** ومن أجلِها افطِرْ ومن أجلِها صُم

سَلامٌ على كفرٍ يُوحِّدُ بَيْنَنا *** وَأهلًا وسهلًا بَعدهُ بِجَهنَّمِ

والعياذ بالله؛ لا فجور أكثر من ذلك!

إن الإسلاميين لا بد أن يتعلموا الولاء ويُعَلِّموا الناس الولاء لبلادهم، فالعالِم الذي يسافر للخارج ليتعلم علمٌ ما فهو بهذا يصنع الحياة مما يعني أن يعود فيُعمِّر بلده أولًا وبعد أن تستقر بلده وتتقدّم فلا مانع أن يذهب ويُعمِّر بلاد أخرى.

د. راغب:

هذا المعنى يُزرع بجهد جهيد، ولكن أنا أرى الكثير من الشباب لديهم إحباط وكراهية حقيقية لبلدهم نتيجة المعاناة التي يمرون بها سواء في العمل أو البطالة أو الفساد أو الكثير من المشاكل التي تجعله يكره البلد، وكل هذه الأمور لا تسوغ أبدًا لمسلم أن يقصّر في مهمته التي من أجلها خلقه ربنا عزَّوجلَّ.

د. صلاح:

يوجد من الناحية الشرعية إثم شرعي، ويجب على الجميع أن يعرف أن وزارة الدفاع الأمريكية وميزانيتها التي وصلت إلى أكثر من ٧٠٠ مليار دولار، ٨٠% من هذه الميزانية من الأبحاث العلمية في الجامعات وغيرها، ٨٠% من الأبحاث أصبحت related أو لها علاقة بمسألة التسليح وهذه المسألة فيها نظر فقهي.

وهناك بعض الأمور مثل الصواريخ الذكية تأخذها إسرائيل مباشرة وتُصنِعها هناك وتصبح لهم يضربون بها فلسطين، وبالتالي يقوى عظم هذه الدولة المستغلة المغتصبة على حساب إخواننا وبراءات اختراع إخواننا.

د. راغب:

ونحن نُعمم هذه القضية، فتشمل جميع المجالات مثل مجال الأدوية وغيرها، ففي النهاية هو بناء وتعمير في البلاد الغربية وتدمير في بلاد المسلمين.

ولا يوجد لدينا مانع من نشر الخير في كل مكان في الدنيا لكن بشرط ألا تضيع أولوياتنا، نحن في زمن حضارتنا الإسلامية لم يكن لدينا مانع أن يأتي إلينا العلماء الغربين من كل البلاد ويعودا بهذا العلم إلى بلادهم، لا مانع أن تنهض بلادهم وتتقدم في الأمور الحضارية العلمية بالعكس نحن نساهم ونساعد ونبني في بلاد الآخرين لكن لا يتسبب هذا البناء في تدمير بلادنا.

أرى أن أحد الحلول العملية أن يكون هناك عمل مؤسسي لإعادة هؤلاء المهاجرين والعلماء الّذين هاجروا في بلاد العالم المختلفة، فالأمر أن ظل فرديا والقضية موكلة إلى راحته النفسية أو فكرته او وجود عالِم يفهمه فالقضية لن تحل.

أتمنى أن نفلح في تكوين هذه المؤسسة وتكون قاعدتها في أي بلد إسلامي ويكون دورها هو التواصل مع هذه العقول المهاجرة بشكل مؤسسي موثق، فما يصلوا إليه يرسل إلى هذه المؤسسة، وما يقعوا فيه من مشاكل يرسل إلى هذه المؤسسة وتساعدهم في حل هذه المشاكل سواء كانت مشاكل مادية او علمية واجتماعية او أي نوع من المشاكل، وتكون مؤسسة كاملة بمقام إحدى الوزارات وتراعي هذه العقول المهاجرة.

وهذا النوع من الاتصال سيضمن، في يوم من الأيام، أن يعود العالِم إلى البلد التي خرج منها، أما هذا الانقطاع الّذي يحدث سيجعله بعد مرور السنين ينسى قضيته، بل أنه من الممكن لن يكون لديه ما يمنع من أن يُبدل وظيفته ومجاله العلمي ولا يعود إلى بلده نهائيًا.

وانا رأيت طبيعة الجالية المسلمة في دول العالم وفي أمريكا تحديدًا، وكيف أن كثير منهم كانت لديهم طموحات عالية جدًا في مجال الطب أو الاقتصاد أو غيره للحصول على الماجستير ولكن بسبب الظروف الصعبة يضطر أن يعمل في مهنة بسيطة ليُنفِق على مجاله العلمي، فيحدث أن الكثير منهم تعوقه الطرق العلمية فيترك مجاله العلمي ولا يعود بعد ذلك إلى بلاده وإنما يُكمل حياته في هذه المهنة التي كانت من المفترض أنها تساعده في علمه.

فيتحول تمامًا حتى يصبح الهدف الرئيسي هو المكوث في البلاد الغربية، ولم يعد هدفه الرئيسي الوصول إلى الدرجات العلمية.

وهذا أمر مؤلم للغاية، ويحتاج إلى وجود مؤسسة ترعى امثال هؤلاء، وأنا أهيب بالاقتصاديين والعلماء الّذين يتابعون هذا الكلام أن يسعوا في تأسيس هذه المؤسسة، تسير على مستوى علمي ويكون لها أسس وآليات وميزانية كبيرة، ويكون لها موقع على الانترنت حيوي وقوي يتابع مثل هؤلاء الناس ويراسلها ويقدم الخدمات لهم، وهذه الحلقات من الاتصال تربط الإنسان بالبلد الأم التي خرج منها من بلاد المسلمين.

د. صلاح:

اقول لكل أب وأم، قبل أن يذهب ولدك ليدرس في الخارج، أن يُزَوِجُه لأنه يفيد في عدد أمور:

أولا: سيضمن أن ابنه سيعود إلى بلاده، لأنه يَندُر أن تجد أحدًا تزوج بالخارج ثم يعود لبلده.

ثانيًا: سيضمن أنه لن يُفتَن هو أو أولاده، ونحن رأينا مآسي لا حصر لها في هؤلاء الذين سافروا وذابوا في المجتمع بسبب هذه الزوجة التي تزوجها من الغرب وشدَّته إلى عادات وتقاليد الغرب ومنعته وأولاده من العودة إلى بلادهم.

د. راغب:

قضية زواج المسلم من غير المسلمة في بلاد الغرب أعرف أن مسموح بالزواج من أهل الكتاب لكن أطرح قضيتين في الفقه:

القضية الأولى: هل هي من أهل كتاب أم لا؟ لأنها من الممكن أن تكون تركت الدين لكن في الظاهر تقول أنها نصرانية أو يهودية.

والقضية الثانية: هي كيفية تربية الأولاد في هذه الظروف البيئية ومع أم غير مسلمة.